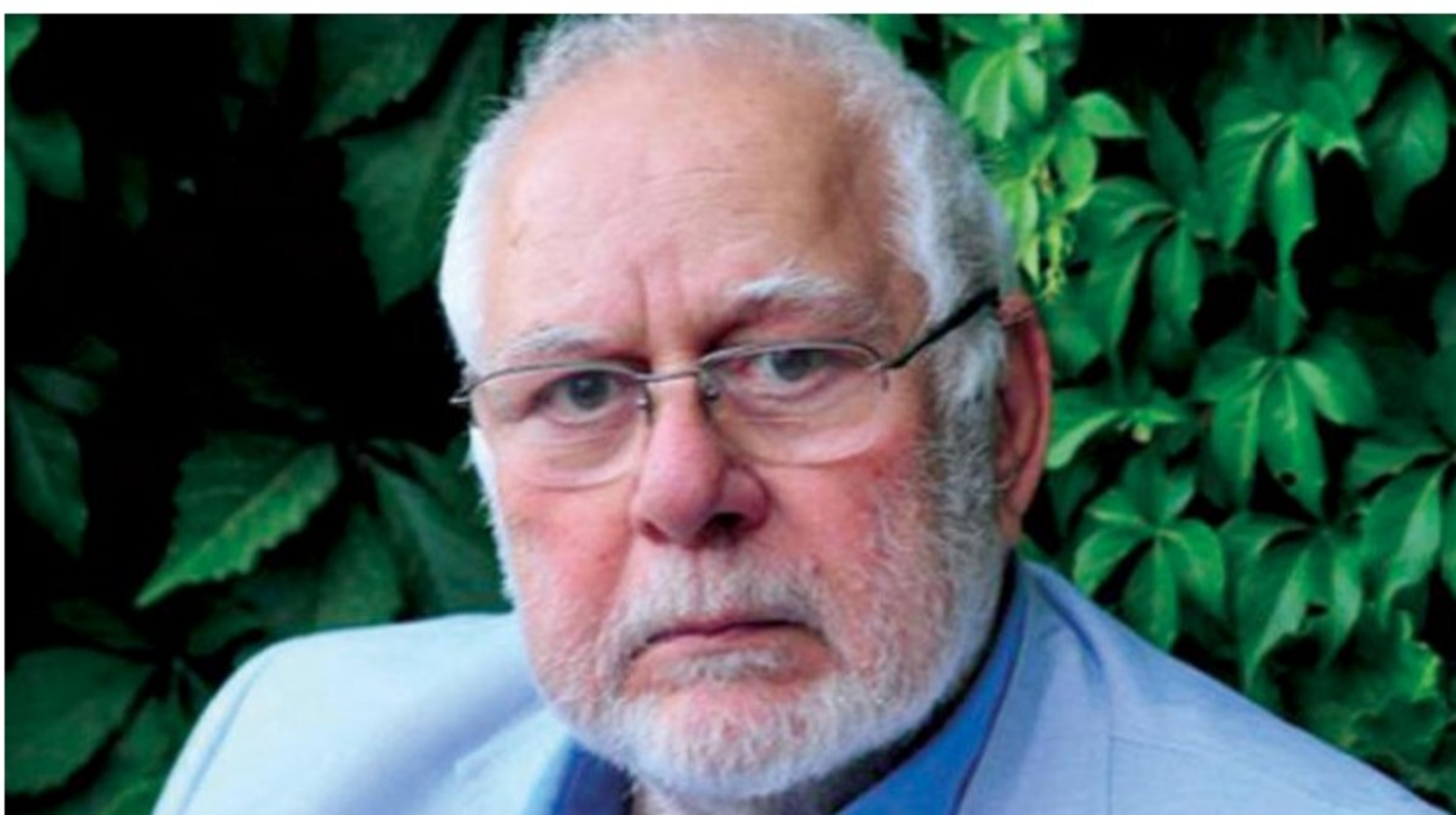


معاذ الألووسي... النجيل البغدادي

أحبّ العمارة وتولّهُ بها مثلما يتّيه العاشق حباً بمعشوقته

الانثين - 6 شوال 1440 هـ - 10 يونيو 2019 مرقم العدد [14804]



لطفية الدليمي

يحار المرء حتى ليكاد يتلبّسه الإعياء في محاولته توصيف المعمار الألووسي: ما هو؟ ومن هو؟ إنه بحقّ كينونة دينامية تستعصي على التوصيف محدّد السمات؛ فما هو بمعمار عراقي وحسب، ولا هو محض مؤرّخ وموثّق لتاريخ العمارة البغدادية، ولا هو كاتب مدقّق في حفريات الحياة البغدادية بتفاصيلها السوسولوجية والأنثروبولوجية الغنية المشتبكة، ولا هو ذلك الحكّاء الذي تلين له أمّقد المرويات المهيّنة والشعبية لتغدو محببة مطواعة. إنّه كلّ هؤلاء، وأكثر من هؤلاء، هو معاذ الألووسي، النجيل البغدادي الذي يمثل روح الأرسقراطية البغدادية عفيفة النفس بكلّ بهائنها وسخائنها وروحها السحمة المشرقة.

لم تُعدّ الممارسة المعمارية لدينا بعيدة الصلة عن الممارسات الثقافية العامة وروح الحياة المؤثرة في الذائقة الجمعية؟ كان هذا واحداً من التساؤلات التي لطالما شغلتنني منذ باكيري اهتماماتي الثقافية -المعمارية منها بخاصة- وقد انتهيتُ بعد تفكّر طويل إلى القناعة التالية:

يبدو لي أنّ منظومة تعليم العمارة لدينا تكترس نمطاً من الهرمية التطبيقية التعليمية الموهومة التي تعمل بدورها على تكريس أنماط من الأنساق الثقافية التي تأتي الاستجابة لروح العصر ومتغيراته الثورية، وبموجب هذه الرؤية الهرمية تبدو الممارسة المعمارية نوعاً من الطقوسيات الكهنوتية المغفلة في إطار جماعة نخبوية من الأثرياء المحظوظين الذين مستهم بركات آلهة العمارة، تلك الآلهة التي ستجعل منهم كائنات متفردة تتسيّد الأعالي الوظيفية المهيمنة في المجتمع. وربما أسهم في إشاعة هذا التصوّر كون أوائل المعمارين متحذرين من عوائل ثرية ذات نفوذ مالي و- أو سياسي فاعل؛ ولما كان شكل الثراء في بلداننا غير الخالقة ولا المطوّرة للتقنيات الحديثة يتمظهر في شكل الملكيات العقارية -أرضاً ومنشآت مشيّد- فسيكون من الطبيعي نشوء ميل تلقائي لتلك العوائل إلى جعل أبنائها يتكئون على دراسة كلّ ما له علاقة بالتطوير العقاري بقصد تعظيم الفائدة الممتناة من الملكيات العقارية وتحقيق أقصى العوائد منها؛ في حين أنّ العمارة الغربية تطوّرت في مسارات موازية للتطوّر الحاصل في الرؤية الثقافية التي تسعى لتعظيم الارتقاء بالوضع البشري، ولعلّ مصداق هذا القول يكمن في حقيقة أنّ أعظم المعمارين الأوروبيين بخاصة- إنّما كانوا من المثقفين الطلائعيين الذين شغلتهم هموم الإنسان ومكابداته قبل أي شيء آخر.

إنّ من سبق له أن قرأ للنائد الثقافي والمعماري تشارلس جينكس -على سبيل المثال فحسب- سيرى أنّ كتاباته أقرب إلى كتابات النقاد الثقافيين المعروفين (أمثال تيري إيفلتون وبل أشكروفت)؛ بل حتى إنّ مفرداته واشتغالاته المعرفية إنّما هي المفردات والاشتغالات ذاتها الشائعة في أدبيات الحداثة وما بعد الحداثة وما بعد الإنسانية... إلخ وليست اشتغالات نخبوية تسعى لخدمة جماعة منغلقة على ذاتها وبعيدة عن الهمّ الإنساني ومتطلّبات الارتقاء بالأوضاع البشرية.

هنا تكمن المأثرة العظمى لمعمارنا الألووسي؛ فهو لم ينكفي في لجة المدرسة المعمارية الأكاديمية العراقية، ولم يتخذ العمارة مرآة تكفل ارتفاعه على أعالي المناصب الوظيفية المهيمنة؛ بل هو أحبّ العمارة وتولّهُ بها مثلما يتّيه العاشق حباً بمعشوقته وعلى طريقة النصفوة، ويحكي لنا الرجل في كتابه «نوستوس: حكاية شارع في بغداد» عن الظروف الغربية التي جعلته جوباً منذ يقاعته يطلب الدراسة والعمل في أسقاع بعيدة؛ فكان أنّ شدّ رحاله إلى إسطنبول ليدرس العمارة فيها، ثمّ يعود بعد هذا إلى بغداد وينطلق منها في رحلة جديدة نحو أوروبا التي كانت مأ تزل تشهد حومة من العمل الخلاق لمعالجة آثار التخريب الناجم عن الحرب العالمية الثانية.

أسهمت أجواء الدراسة والعمل (فضلاً عن الخبرات غير التقليدية التي تحضّلها الألووسي مبكراً في حياته) في جعله شخصية إنسانية غير منمّطة تتعالى على الأنساق البيروقراطية المتكسدة وتطمح للعمل والفعل والإنجاز بعيداً عن الأجواء المكتبية وعالم الدساتير التي يحفل بها القطاع الحكومي.

المعمار المحبّ للإنسان

يمثّل الألووسي النموذج الرفيع للمعمار الإنساني الذي يرى في العمارة رافعة لتحسين ظروف البيئة الإنسانية بعيداً عن اتخاذها وسيلة لخدمة الأثرياء والمقتدرين مالياً فحسب، وهو إذ يمثّل هذه الروح المحبّة للإنسان كان يعيد بعد كلّ البعد عن الانغماس في مظهريات فلكلورية اختزالية بل يسعى دوماً للارتقاء بمفردات العمارة البغدادية والحفاظ على الموروثات البغدادية (والعراقية بعامة) بطريقة أكاديمية منمّطة مستفيداً من تجربته الألمانية في العمل، والألمان -كما نعرف- ذوب باع طويل وخبرة معنّقة في هذا الميدان. كتب الألووسي في أحد منشوراته الفيسبوكية الحديثة نصّاً أجتزئ منه المقطع التالي:

«في بداية الثمانينات، انشغلت بمشاريع موازية لواجباتي في شارع حيفا. علّمني مشروع تطوير الكرخ، مع نخوة تأهيل مدينة الثورة، أن أتخصّص موقع المهنة من الناس. الطرف الآخر من المهنة هم الناس العاديون. لا أحد غيرهم من يحتاج إلى سكن صحي، ومدارس مؤهلة ومنمّجة، وخدمات سهلة. مهمّتنا توفير الحق المكتسب والأولي في السكن والمال. كلّما أتعلّق إلى برج من أبراج دبي أحسب في رأسي كم داراً رخيصة الكلفة يوقرّ هذا البرج أو ذاك لأولئك العراقيين الذين يسكنون المزابيل أو في (حيانة) البصرة التي لا تصلح لسكن البشر. والآن في الموصل التي تتعفن تحت أنقاضها الجثث. لدينا عشرات المدارس المعمارية تخرّج معماريين، وهم الآن يروّجون للمرمر الإيطالي والألوكوند الألماني، وكريستال بوهيميا لسقوف صحون الأضرحة، ولأبراج زهوية...»

يوضّح هذا النضّ المختصر، وبأجلى صورة، المفاعيل الإنسانية التي تعترق في روح الألووسي وتنصّص عليه هناية العيش، إذ يرى بغداده التي أحبّ وهي تعيش وسط مبابة فضائحية من التخلف والقهر وانعدام الإحساس بإنسانية الإنسان، كما يعيب في الوقت ذاته على هذا الفيض من المعمارين الذين ما عادوا يلقون بالألأ أي عنصر إنساني أو فلسفي أو ثقافي في ممارستهم المهنية بقدر ما باتوا يروّجون لنمط من البيوتات الفبيحة متعددة الطوابق تُبنى على مساحات ضئيلة من الأرض في مشهد بصري يلوّث الذائقة البغدادية ويتقطع معها في أتبّح استعراض بصري يوظّف المنتجات البنائية المستوردة غالية الثمن. إنها حفلة ثقافة فاستية تريد مقايضة الأصالة البغدادية العريقة بهياكل إنشائية تكسوها مواد تغليف باهظة الثمن.




حكّاء ماهر

يتفردّ الألووسي بقدرته الحكائية الغدّة التي تجيد إعادة سرد الوقائع الحياتية -مهنية كانت أم غير مهنية- في نسق حكاياتي أخاذ يسك بعقل القارئ وروحه، وهو إذ يفعل هذا الأمر فإنّه يكشف عن قدرة متأصلة فيه (أراها أقرب إلى موهبة سردية متميزة) في سرد الوقائع ومن ثمّ استخلاص الحكمة المكتوزة فيها عبر نسيج حكاياتي يجمع بساطة الحكايات التي تواتر على سردها العجائز مع عنفوان الفكر الجامع الكامن فيها، وأشهد -وأنا التي قضيت عمراً كاملاً مع السرد ومهاماته- أنّ الأستاذ الألووسي يستحقّ أن يكون حكّاءً من الدرجة الأولى وبأرقى المناهج الرفيعة من التجارب السردية المتداولة؛ فالغلة لديه تستحيل مركّباً مطواعاً يستجيب لذائقة البغدادية ولفكره الخصب بعيد عن الرطانات العقيم.



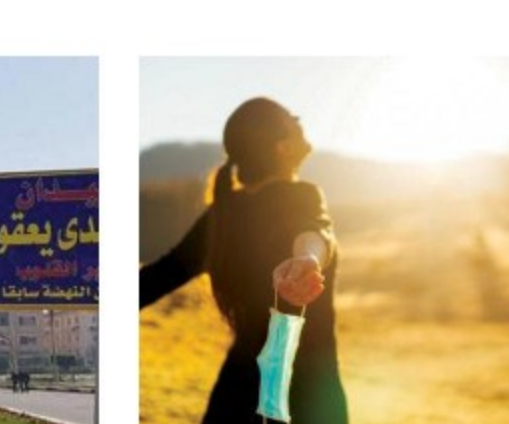

دأب الألووسي على تسجيل سيرته الذاتية الفكرية -الحياتية- المهنية في كتب ثلاثة أخرجها تحت عناوين مثيرة لافتة -لا يفغل عن شرحها للقارئ- وقد جاءت حسب الترتيب التالي: «نوستوس: حكاية شارع في بغداد»، و«توبوس: حكاية زمان ومكان»، و«ذروموس: حكاية مهنة». أقول بكلّ ثقة إنّ تلك السيرة هي أجمل سيرة ذاتية لشخصية عراقية سبق لي أن قرأتها، وربما لا تضاهيها سوى السيرة الذاتية للراحل الكبير جبرا إبراهيم جبرا، وإن كانت تمتاز عنها في طبيعتها السيكلوجية؛ فالكاتب يبقى كاتباً ذا مميزات خاصة لا بد أن تختلف بالضرورة عن المميزات التي تسم الكاتب الذي يمارس مهنة غير الكتابة. معاذ الألووسي أكبر من معمار أو كاتب أو أي توصيف مهني أو إبداع.

- كاتبة وروائية ومترجمة عراقية مقيمة في الأردن

أخبار ذات صلة

 جدل عراقي حول أحقية «الرفحانيين» بالتمنّح ضد	 «لجنة الأمن» تطالب الكاظمي بموقف واضح حيال «مباحثات	 العراق يطلب دعم ألمانيا لرفعها من قائمة «تمويل الإرهاب»
الكاظمي يتعهد محاسبة قتلّة الهاشمي	عملية عسكرية عراقية لفرض القانون على الحدود مع إيران	العراق يستعيد منافذه على الحدود مع إيران
العراق يعزز حربه على «كورونا» ب20 مستشفى جديداً	جبال أنقاض في الموصل بعد 3 سنوات على تحريرها	العراق يستعيد ذكرى تحرير الموصل وسط استمرار تحدي «داعش»
أربيل تتجنّب استفزاز بغداد بشأن عودة البيشمركة إلى كركوك	عملية «نوعية» للجيش العراقي ضد «داعش»	الكاظمي معزياً أسرة الهاشمي: دمه لن يضيع

اختيارات المحرر

 غاننوس: نتيناهاو لا يستطيع بحث «الضم» من دون موافقتي	 شوارع وميادين صصرية تحفّي بالأطباء	 «كوفيد 19»... ومستقبل الإنسان	 معاناة السوريين وانتكاسة الأكراد بريشة 3 فنّانين
نمو قطاع التأمين السعودي 8 % بقيمة أقساط 10.1 مليار دولار	مفاوضات «سد النهضة» بانتظار اتفاق «اللحظات الأخيرة»	الراعي: أطلقت نداءً حياض لبنان لخيره وخير مكوناته	الاف المظاهرات يطالبون بإسقاط الحكومة الإسرائيلية
أوبرا متروبوليتان في نيويورك تنظم حفلات افتراضية ب20 دولاراً	فرنسا تمنح سامي خياطة وسام الفنون والآداب من رتبة ضابط	يونانيد يأمل تجاوز ساوثهامبتون لدخول المربع الذهبي... وولفرهامبتون	الهند: طلبات تمويل بـ1.3 مليار دولار لجهات غير مصرفية بموجب خطة إنقاذ

الوسائط المتعددة

